الدكتور الحاج أحمد باحميد , لسانس الآداب

النحو ونشأته عند البصريين والكوفيين (القرن الأول الهجرى إلى الثالث الهجرى)

كان اختلاط العرب بغيرهم قبل الإسلام نادرا جدا, وكان منحصرا فى تجارتهم نحو اليمن والشام. قد أراد الله عز وجل تخليد ذكرياتهم بسورة خاصة بين دفتى القرآن الكريم وسماها سورة قريش. وها هى فيما يلى:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

لإيلاف قريش (١) إيلافهم رحلة الشاء والصيف (٢) فليعبدوا رب هذا البيت (٣) الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (٤).[١]

فضلا عن مجاورتهم بالفرس والروم, و لم يكن هذا يؤثر فى لسانهم العربى. إذ الألفاظ التى يستعملونها فى معاملتهم مع هؤلاء مقصورة على حدود بيع أو شراء أو رفض أو قبول وما إلى ذلك من أداة أسلحة وأسماء سلعة. تلك الألفاظ لا تؤثر تاثيرا كبيرا فى لغتهم التى تجرى فى كيانهم مجرى الدم فى العروق فلم تصب لغتهم بداء اللحن إلا قليلا. و لم يكن هذا القليل داعيا إلى وضع حد له فإنه لا يمثل الخطورة الكبيرة على اللغة وإنما يمثل خطورة إذا زاد وانتشر واستشرى فى ألسنة بعض العرب وفصحاء القوم.[٢]

ومن هنا نستطيع أن نضع ثلاثة أسئلة:

الأول : لماذا وضع النحو ؟

الثاني: هل كان اللحن معروفا في الجاهلية وفي عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

الثالث : ما مظاهر انتشار اللحن التي جعلت الغيورين على دينهم يشمرون عن ساعد الجد في وضع قواعد النحو ؟

ويمكن تلخيص الإجابة كالآتي :

لانتشار اللحن ولغيرة المسلمين وحرصهم على لغة دينهم لغة القرآن الكريم. كما يمكن إيجاز الإجابة عن السؤال الثاني **بنعم**. لأن اللحن كان معروفا في الجاهلية وفي عهد الرسول وفي عهد خلفائه الراشدين.

والجواب عن السؤال الثالث : أن انتشار الإسلام وكثرة الفتوحات ودخول الناس في دين الله أفواجا, واختلاط غير العرب بهم واختلاط العرب بغيرهم سبب في ظهور اللحن الذي جعل المسلمين يشمرون على الساعد لوضع قواعد النحو.

يكاد يكون يتفق النحويون أن أبا الأسود الدؤلي له المجهود الأكبر في وضع علم النحو, ولو لم يكن معروفا في عهده لقب النحو, بل كان معروفا بعلم العربية. ومن ثم كانت التسمية **بالنحو في عهد أبي الأسود الدؤلي تسمية مجازية مبنية على** الاتساع فلم تحدث هذه التسمية إلا في وقت متأخر. وقيل جاء على هذا الاسم لما قال الإمام علي كرم الله وجهه لأبي الأسود الدؤلي : انح هذا النوع ولا واضعه.

تعريف النحو لغة واصطلاحا :

النحو بمعنى الجانب والطريق والقصد.٣ وأما فى الاصطلاح فهو علم يعرف به كيفية التراكيب العربية الصحيحة وما يتعلق بألفاظ من حيث وقوعها فيه. وقيل هو قواعد بها تعرف أحال الكلمات العربية إعرابا وبناء.٤

إن الدراسات القرآنية فى مجال النحو والقراءات كان له أثر كبير فى قواعد علم النحو.٥

وقد تطلق كلمة النحو لغة ويراد بها واحد من خمسة معان :

١- المعنى المشار إليه وهو القصد, يقال: نحوت نحوك أى قصدت قصدك.

٢- المثل, نحو : مررت برجل نحوك , أى مثلك.

٣- الجهة,نحو : توجهت نحو البيت أى جهة البيت.

٤- المقدار, نحو: له عندى نحو عشرة جنيهات أى مقدار عشرة.

٥- القسم , نحو: هذا الموضوع على أربع أنحاء, أى أربعة أقسام.٦

اللحن :

اللحن الذى يراد ذكره فى هذه المقالة والذى سعى به نوع من التأليف فى اللغة العربية, هو الخطأ فى اللغة : أصواتها أو نحوها أو صرفها أو معانى مفرداتها.٧

ولعل أول معنى لهذا اللفظ هو ما ذكره أحمد بن فارس. فأما اللحن بسكون الحاء, فإمالة الكلام عن جهة الصحيحة في العربية , يقال: لحن لحنا, وهذا من الكلام المولد, لأن اللحن محدث, لم يكن في العرب العاربة, الذين تكلموا بطباعهم السليمة.٨

فكانت للفظ الآلات الآتية :

أولا: الغناء وترجيح الصوت والتطريب. والمعنى العام ملحوظ في هذه الدلالة, إذ هي إزالة الكلام عن جهة الصحيحة بالزيادة والنقصان في الترنم.٩

ومن شواهد هذا المعنى قول يزيد بن النعمان :

لقد تركت فؤادك مستجنا #

مطوقة على فنن تغنى

يميل بها وتركبها بلحن #

إذا عن للمحزون أتا

فلا يحزنك أيام تولى #

تذكرها ولا طير أرنا ١٠

والمراد به *اللحن* الذى هو ضرب من *الأصوات المصوغة للتغنى*, والدليل على ذلك قوله : *مطوقة على فنن تغنى* .

ثانيا : **الخطأ في اللغة**

ويعد من الشواهد على اللحن بمعنى الخطأ عند بعض العلماء قول مالك بن أسماء بن خارجة :

منطق رائع وتلحن أحيا #

نا وخير الحديث ما كان لحنا ١١

فقد فسر الجاحظ *اللحن* هنا *بالخطأ*, وتابعه في ذلك ابن قتيبة وابن عبد ربه.١٢

ثالثا : **اللهجة الخاصة**

وقد استشهد أبو بكر ابن الأنبارى وأبو على القالى على أن معنى اللحن اللهجة .

يقول على بن عميرة الجرمى :

وما هاج هذا الشوق إلا حماحة #

تبكت على خضراء سمر قيودها

هتوف الضحا معروفة اللحن لم تزل #

تقود اهوى من مسعد ويقودها ١٣

المراد بقول *معروفة اللحن* هى *اللهجة* أى *معروفة اللهجة*.

هذه هى المعانى التى وردت لمادة **لحن** فى المعجمات وكتب اللغة. والذى يهم الكاتب هنا هو اللحن بمعنى الخطأ فى اللغة: أصواتها أو نحوها أو صرفها أو معانى مفرداتها. وهذا المعنى متأخر عن المعانى الأخرى, لتأخر ظهور اللحن فى كلام العرب العاربة الذين تكلموا بطبعهم السليمة. ١٤

نشأة اللحن

إن اللحن فى معنى الخطأ فى اللغة العربية قد تأخر فى نشأته كما قدمنا فى الفقرة السابقة, فإن السبب فى ذلك

راجع إلى أن العرب لم يلتفتوا إلى الخطأ فى اللغة إلا حين اختلطوا بغيرهم من أهل البلاد المفتوحة. كما أنهم اتخذوا العبيد والجوارى لإدارة المنازل فى العصر الإسلامى المبكر.

وقد روى أن رجلا لحن بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم, فقال لأصحابه: ارشدوا أخاكم فإنه فقد ضل. ١٥

وقد جمع الدكتور عبد العزيز مطر ٣٥ مسألة مما ورد فى اللحن فى أوائل نشأته فى كتاب *البيان والتبيين* للجاحظ و*عيون الأخبار* لابن قتيبة و*العقد الفريد* لابن عبد ربه.١٦

أما حالات الخطأ فى الإعراب فقد رويت عن شخصيات عربية معروفة بأسمائها كالحجاج بن يوسف والوليد بن عبد الملك وبشر بن مروان وخالد بن عبد الله القسرى وعبد العزيز بن مروان وعيسى بن المدور والحصين بن أبى الحر وخالد بن صفوان الأهتمى ومهدى بن مليل.١٧

إن اللغة العربية تحتاج إلى رعاية وعناية وحفظ لأنها لغة القرآن والحديث وبرعايتها تحفظ الملة وتفهم أسرارها. ففى عهد عمر بن الخطاب (ولد ٤٠ ق هـ وتوفى ٢٣ هـ) حدث أن أعرابيا طلب أحدا أن يقرئه شيئا من القرآن الكريم , فأقرأه رجل سورة براءة فلحن فى قوله تعالى: وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برئ من المشركين ورسوله.١٨

حيث قرأ بكسر اللام فى " رسوله" فقال الأعرابى أو قد برئ الله من رسوله ؟ إن يكن الله قد برئ من رسوله فأنا أبرأ منه. فلما

بلغت هذه الحادثة عمر وقال له : ليس هكذا يا أعرابى , فقال الأعرابى: كيف هى يا أمير المؤمنين ؟ فقال: إن الله برئ من المشركين ورسوله بالرفع , فأمر عمر بعد ذلك ألا يقرأ القرآن إلا عالم باللغة. ١٩

وروى أيضا أن كاتب أبى موسى (ت ٤٤ هـ) كتب كتابا مرسلا إلى عمر خط فيه : من أبو موسى الأشعرى إلى عمر, فأرسل عمر إلى أبى موسى : بأن يضرب كاتبه سوطا ويؤخر عطاه سنة. ٢٠ والصحيح من أبى موسى.

أول من وضع النحو

اختلف العلماء قديما وحديثا فى أول من وضع النحو, وفيما يلى بعض آرائهم :

أولا : قيل إن أول من وضع علم العربية وأسس قواعده وحدد حدوده هو أمير المؤمنين على بن أبى طالب. وهو أول من بدأ استقراء اللغة واستنتاج أقسام الكلام منها: وهى الاسم والفعل والحرف. ٢١ ثم كلف أبا الأسود الدؤلى أن يستأنف العسيرة ويتابع العمل وينحو نحوه فى الاستقراء والاستنتاج.

ثانيا : قيل إن أول من وضع النحو أبو الأسود الدؤلى (ت ٦٧ هـ) بإشارة من زياد بن أبيه (ت ٥٣ هـ). ٢٢

ثالثا: قيل أن أبا الأسود أصر على وضع النحو حينما قالت له بنته فى ليلة كثيرة النجوم, ما أحسن السماء ؟ بضم نون أحسن وكسر همزة السماء, فقال نجومها: حيث ظن أنها تستفهم. فتحيرت لها خطؤها فعلم أبو الأسود أنها أرادت

التعجب, فقال لها قولى يا بنية : ما أحسن السماء , بفتح النون والهمزة. ٢٣

رابعا: يرى أحمد بن فارس وأبو على الفاسى أن وجود النحو بتوفيق من الله واستدلوا بقوله تعلى : وعلم آدم الأسماء كلها. (البقرة: ٢\ : ٣٩) ٢٤

والجدير بالذكر أن أبا الأسود الدؤلى له دور كبير فى وضع الحجر الأساسى على النحو. سواء من أمر نفسه أو أمر عمر أو من أمر على بن أبى طالب أو من أمر زياد على الخلاف السابق فى ذلك, وهم كانوا على علم بمعرفة أبى الأسود الدؤلى على اللغة العربية وعلومها.

وأبو الأسود الدؤلى هو أول من بدأ بنقط المصحف وهو ما يقوم مقام الشكل بالحركات الآن. وذلك بوضع نقطة على أعلى الحروف لتدل على الفتحة أو بين يدى الحرف لتدل على الضمة أو تحته لتدل على الكسرة, ويجعل النقطة نقطتين كذلك لتدلا على التنوين.٢٥

نشأة النحو عند البصريين

قد اتفق العلماء أن العراق كانت مهدا لنشأة النحو , ولا عجب إذا قيل إن مهد نشأته كان فى البصرة بين العراق الثلاث بل لقد احتضنت البصرة النحو زهاء قرن من الزمان قبل أن تشتغل به الكوفة التى بدورها أسبق من بغداد. ٢٦

ويمكن إيجاز أسباب أسبقية البصرة على غيرها من مدن العراق في الاشتغال بالنحو فيما يلي:

أولا : السياسة

كانت البصرة عثمانية أموية, وكانت الكوفة علوية عباسية. فلقد هبط علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الكوفة , واتخذها مقرا لخلافته, إذ كان أهل الكوفة مضيعين له فدعوه إليهم في الوقت نفسه شق فيه أهل البصرة عليه عصا الطاعة .

فقد جاءت السيدة عائشة (ت ٥٨ هـ) رضي الله عنها البصرة, ومعها جيش طلحة (ت ٣٦ هـ) والزبير (ت ٣٦ هـ) مطالبين بثأر عثمان (٣٥ هـ \ ٦٥٦ م). ٢٧

فاستمرت البصرة هاشمية عثمانية والكوفة قرشية علوية. ولما كانت مهزلة التحكيم والغالب فيها الأمويون كان طبيعيا أن يكون الاستقرار والطمأنينة والهدوء للبصريين. ٢٨

ثانيا : الموقع الجغرافي

تقع البصرة على طرف البادية مما يلي العراق في أقرب مدن العراق إلى العرب الأقحاء الذين لم تلوث لغتهم بعامية الأمصار, فعلى مقربة منها بوادي نجد غربا والبحرين جنوبا, فسهل على أهل البصرة الاتصال بهم دون أن يتكلفوا مشاق السفر والمحنة والعناء.

ثالثا : **قرب سوق المربد من البصرة**

إذ كانت تنعقد فيها مجالس للعلم والمناظرة, ويفد فيها الشعراء ورواتهم فهى تشبه سوق عكاظ فى الجاهلية ينزل فيها الشعراء والأدباء والأشراف للمذاكرة والرواة والوقوف على ملح الأخبار واللغويون يأخذون على أهلها ويدونون ما يسمعون فيأخذ منهم النحاة ما يصح قواعدهم . ٢٩

والجدير بالذكر أن البصرة مرفأ تجارى للعراق على الخليج العربى. فقد نزل إليها عبد الله بن إسحق الحضرمى من أول النحاة البصريين بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة. ٣٠

وقول ابن النديم: إنما قدمنا أهل البصرة أولا لأن علم العربية أخذ. ٣١ مهما قيل فإن أهل الكوفة اتخذوا البصرة منتلمذا لهم حتى يسر الله لهم من شعارة النصيب الأوفى, فاشترك علماؤهم مع علماء البصرة من النهوض به فى عهد الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ). ٣٢ على أنه ينبغى أن نفهم السر فى أن عقل البصرة كان أدق وأعمق من عقل الكوفة وكان أكثر استعدادا لوضع العلوم. ٣٣

وما كان بين القراءات من خلافات فى الإعراب هو الذى أضرم الرغبة فى نفوس قراء البصرة كى يضعوا النحو وقواعده وأصوله حتى يتبين القارئ مع الكلم فى آية القرآن الكريم من الإعراب المضبوط الدقيق.

والحق أن المدرسة البصرية كانت أدق حسا من مدرسة الكوفة فى الفقه بدقائق العربية وأسرارها. فقد تعمقت ظواهرها

وقواعدها النحوية والصرفية تعمقا أتاح لها أن تضع نحوها وضعا سديدا قويما.

ومن أشهر علماء النحو سيبويه الذى أخذ النحو من الخليل بن أحمد, وقد وضع كتابه المشهور *الكتاب* جامعا فيه ما نقله عن أستاذه, ولقد عظم شأن *الكتاب* حتى صار علما بالغلبة عليه, وسمى *قرآن النحو*. ٣٤

الدور الأول : **دور الوضع والتكوين**

يؤرخ العلماء لهذا الدور بعد أبى الأسود الدؤلى بنصر بن عاصم الليثى (ت ٨٩ هـ) إلى عهد الخليل بن أحمد الفرهودى(ت ١٧٥ هـ) وهذا دور بصرى خالص. وبرز فيهما طبقتان من علماء البصرة وها هما:

الطبقة الأولى من البصريين :

تبدأ من عهد نصر بن عاصم (ت ٨٩ هـ) إلى يحيى بن يعمر (ت ١٢٩ هـ).

١) نصر بن عاصم الليثى (ت ٨٩ هـ) , كان فقيها عالما بالعربية فصيحا ويعد من قدماء التابعين, أخذ القرآن والنحو عن أبى الأسود الدؤلى . ٣٦

٢) عنبة الفيل, وهو رواة الشعر (ت ١٠٠ هـ). ٣٧

٣) عبد الرحمن بن هرمز (ت ١١٧ هـ) مدنى, أخذ القراءة عن عبد الله بن عباس (ت ٦٧ هـ), وأخذ العربية عن أبى الأسود الدؤلى,

وكان من أعلم الناس بالنحو وأنساب قريش, كما أن أهل المدينة أخذوا النحو منه. ٣٨

٤) يحيى بن يعمر العدوانى (ت ١٢٩ هـ) , كان عالما بالعربية والحديث. ٣٩

فكان منهج هذه الطبقة مبسطا, إذ وضع أبو الأسود القواعد العامة مقصورة على السماع, ولم تعلنا عن هذه الطبقة كتب منظمة يمكن الاعتماد عليها. وفى عهد عبد الملك بن مروان قام نصر بن عاصم بإعجام المصحف بالنقط المعروفة الآن بعد أن أصلح من النقط التى وضعها أبو الأسود الدؤلى لتدل على جهة الصوت. وذلك بتحويلها إلى الحركات المعروفة فجعلت نقط نصر بن عاصم محل نقط أبى الأسود وتحولت نقط أبى الأسود إلى ضمة أو ضمتين أو فتحة أو فتحتين أو كسرة أو كسرتين إلى الآن حتى يرث الأرض عليها. ٤٠

الطبقة الثانية من البصريين فى الدور الأول :

تبدأ هذه الطبقة من عهد عبد الله بن إسحاق (ت ١١٧ هـ) إلى عهد أبى عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) . ٤١ ومما يلى سيذكر الكاتب أسماء علمائها المشهورين :

١) عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى إمام فى القراءة والعربية ويقال: إن ابن إسحاق أول من علل النحو . ٤٢

٢) عيسى بن عمر (١٤٩ هـ) هو مولى خالد بن الوليد المخزومي نزل في ثقيف وهو معدود من قراء البصرة ونحاتها, وعنه أخذ الخليل بن أحمد, وله في النحو أكثر من سبعين مؤلفا. ٤٣

٣) أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن عبد الله المازني النحو القارئ أحد القراء السبعة المشهورين . ٤٤

منهج هذه الطبقة وأثرها:

١) نهجت هذه الطبقة منهج الاستنباط واستعمال القياس فوضعت كثيرا من أصول النحو ومسائله واقتصرت مباحثهم على البحث في أواخر الكلمات. ٤٥

٢) امتزجت مباحث النحو فيها بمباحث اللغة والأدب وغيرهما. ٤٦

٣) فلقد ذهب أبو جعفر الرؤاسي (١٨٥ هـ) إلى البصرة وأخذ النحو عن عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء. ٤٧

الدور الثاني: دور النمو والنشوء والارتقاء

أولا: الطبقة الثالثة البصرية :

١- الأخفش الأكبر (١٧٢ هـ) أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد الأخفش الأكبر, كان إماما في العربية لقي الأعراب وأخذ عنهم. ٤٨

٢- الخليل بن أحمد (١٧٢هـ) هو أبو عبد الرحمن بن أحمد تميم الفرهودي نسبة إلى فراهيد اليمن, وهو أول من استخرج العروض. ٤٩

٣- يونس بن حبيب (١٨٢ هـ) وهو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبي الولاء من أكابر النحويين. ٥٠

ثانيا: الطبقة الرابعة البصرية

١- سيبويه (ت ١٨٠ هـ\ ٧٩٦ م) هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قمبر, ولد في البيضاء قرب شيراز وتوفي فيها. كان منشأه في البصرة . تعلم على الخليل. يعد إمام مذهب البصريين وكتابه في النحو هو *الكتاب*. شرحه ابن السراج والمبرمان والسيرافي والرماني. ٥١

٢- اليزيدى (ت ٢٠٢ هـ) أبو محمد يحيى بن المبارك العدوى , أبو محمد اليزيدى كان مقرئا كما كان نحويا لغويا. ٥١

٣- أبو زيد (ت ٢١٥ هـ) هو أبو زيد سعد بن أوس بن ثابت الأنصارى الخرزمى كان إماما مشهورا عالما بالله والنحو. ٥٣

٤- الأصمعى (ت ٢١٦ هـ) وهو أبو سعيد عبد الملك بن قريب الباهلى, ويقرر الخطيب البغدادى في تاريخه أنه كان دون أبي زيد الأنصارى في النحو والقواعد. ٥٤

ثالثا: الطبقة الخامسة البصرية

١- الأخفش الأوسط (ت ٢١١ هـ) هو سعيد بن مسعدة أبو الحسن الأخفش الأوسط كان من تلاميذ سيبويه, وأعظم آثاره هو حفظه كتاب أستاذه.

وروى عن الأخفش الأوسط أنه دخل بغداد وأقام بها مدة روى وصنف بها, وذلك بعد خذلان سيبويه في المناظرة المشهورة. وقد أراد أن يثأر لإستاذه وزميله, فتحرش بالكسائي وسأله أمام تلامذته الفراء والأحمر وغيرهما وخطأه في إجابته حتى هم التلاميذة بالوثوب عليه ولكن الكسائي منعهم وأكرم مثواه, فأقام بالكسائي ينعم بالحياة الرغيدة وجعله مؤدب أولاده. ٥٥

٢- قطرب (ت ٢٠٦ هـ) هو أبو محمد المستنير. ٥٦ ولد بالبصرة وأخذ عن سيبويه وعيسى بن عمر الثقفي, ثم جعله هارون الرشيد مؤدبا لابنه الأمين. ٥٧ ومن تصانيفه في العربية: الأضداد, وإعراب القرآن, والعلل في النحو, ومجاز القرآن, والغريب في اللغة. ٥٨

الدور الثالث : **دور النضج والكمال**

أولا : الطبقة السادسة البصرية

١- الجرمي (ت ٢٢٥ هـ) هو أبو عمر صالح بن إسحاق الجرمي, توفي في خلافة المعتصم. ٥٩

٢- التوزي (ت ٢٣٨ هـ) هو أبو محمد عبد الله بن محمد مولى قريش, كان من أكابر العلماء البصريين. ٦٠

٣- المازني (ت ٢٤٨ هـ) هو أبو عثمان بكر بن محمد, ولد في البصرة وتربى في بني مازن فنسب إليهم. ٦١

٤- أبو حاتم السجستاني (ـ ٢٥٠ هـ) هو أبو حاتم السجستاني سهل بن محمد بن عثمان بن القاسم من ساكني البصرة. وهو لغوي درس في البصرة على الأصمعي وأبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة بن المثنى والأخفش. كان بصيرا بالشعر والشعراء الأقدمين. تعلم عليه ابن دريد والمبرد. من مؤلفاته المطبوعة: *كتاب الأضداد* و*النخل* و*كتاب المعمرين*. ٦٢ وكان إمام البصرة في علوم القرآن واللغة والشعر.

٥- الرياشي (٢٥٧ هـ) هو أبو الفضل عباس بن الفرج الرياشي، عالم باللغة والشعر. عاشر الجاحظ. كان عبدا لرياش وقو رجل من حذام فبقي عليه نسبه إلى رياش. أخذ عن الأصمعي وأخذ عنه المبرد وابن دريد. قتله الزنج في البصرة. له *كتاب الخيل* و*كتاب الإبل*. ٦٣

ثانيا: الطبقة السابعة البصرية

نكتفي منها بذكر المبرد خاتم البصريين. المبرد بكسر أي المثبت للحق. المبرد (ت ٢٨٥ هـ) هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي البصري أبو العباس المبرد إمام العربية. وكان رأس نحاة البصرة في زمانه، وكثيرا ما سلك المبرد في النحو طريقا خاصا به، ولم يتردد أحيانا في مخالفة سيبويه نفسه، بل حاول أيضا في بعض مصنفاته نقض آراء سيبويه. وقدم المبرد إلى بغداد في شيخوخته، وتوفي بها في شوال ٢٨٥ هـ الموافق بشهر نوفمبر ٨٩٨ م. ٦٤

نشأة النحو عند الكوفيين

الطبقة الأولى من الكوفيين :

تقابل الطبقة الثالثة من البصريين الطبقة الأولى من الكوفيين, ومن أشهر علمائها:

١- أبو جعفر الرؤاسي (ت ١٧٥ هـ) وهو أبو جعفر محمد بن الحسن الرؤاسي وسمى بالرؤاسي لكبر رأسه. وهو أول من وضع النحو من الكوفيين فى كتاب خاص, وكان أستاذا للكسائى والفراء, وكان رجلا صالحا. ٦٥ وقيل أيضا إن سيبويه إذا ذكر فى كتابه *الكوفى* يعنى أبا جعفر الرؤاسى. ٦٦

٢- معاذ الهراء (ت ١٧٨ هـ) هو معاذ بن مسلم الهراء. ٦٧

الطبقة الثانية من الكوفيين :

من أشهر العلماء فى هذه الطبقة الكسائى, بل هو المؤسس الحقيقى لمدرسة الكوفة, ولذلك يكتفى بالحديث عنه فى التمثيل لهذه الطبقة . ٦٨ وهو أبو الحسن على بن حمزة بن عبد الله بن عثمان الإمام أبو الحسن الكسائى إمام الكوفيين فى النحو واللغة وأحد القراء السبعة المشهورين. وسمى بالكسائى لأنه أحرم فى كساء وكان من أهل الكوفة. ٦٩

نشأ بالكوفة وتعلم فى الكبر بعد لحنة لحنها أمام جمع من طلبة العلم فلازم أئمة الكوفة حتى أنفد ما عندهم, ثم خرج إلى الخليل فى البصرة وجلس فى حلقته فأعجبه علمه فقال له:

من أين علمك هذا ؟ قال من بوادى الحجاز ونجد وتهامة فخرج إليها وأنفد خمس عشرة قنينة حبر فى الكتابة عن العرب سوى ما حفظه عنهم, وجعله الرشيد مؤدب ولده الأمين, وتوفى بالرى سنة ١٨٩ هـ . ٧٠

الطبقة الثالثة من الكوفيين :

١- الأحمر (ت ١٩٤ هـ) هو أبو الحسن بن على المبارك . ٧١ من مؤلفات الأحمر *التصريف* و*تفنن البلغاء* . ٧٢

٢- الفراء (ت ٢٠٧ هـ) هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله ابن مروان الديلمى الباهلى الفراء فارس الأصل مثل الكسائى. ٧٣

وقال ثعلب: "لولا الفراء لما كانت اللغة لأنه خلصها وضبطتها. ولولا الفراء لسقطت العربية, لإنه تنازع ويدعيها كل من أراد, ويتكلم الناس على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب. ٧٥

٣- اللحيانى (ت ٢٢٠ هـ) هو أبو الحسن على بن المبارك بن حازم اللحيانى من بنى لحيان, وقيل سمى بهذا لعظم لحيته. ٧٥

قال سلمة (ت ٢٧١ هـ) : كان اللحيانى أحفظ الناس للنوادر عن الكسائى والفراء والأحمر. فمن نوادره أنه حكى عن بعض العرب أنهم يجزمون بلن وينصبون بلم وعلى هذه اللغة قراءة من قرأ : ألم نشرح لك صدرك, بفتح الحاء . ٧٦

الطبقة الرابعة من الكوفيين:

١- ابن سعدان (ت ٢٣١ هـ) هو أبو جعفر محمد بن سعدان الضرير الكوفى النحوى المقرئ. ٧٧

٢- الطوال (ت ٢٤٣ هـ) هو أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن قادم الطوال من أهل الكوفة أحد أصحاب الكسائى. ٧٨

٣- ابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت. أخذ عن أبى عمرو الشيبانى والفراء وابن الأعرابى. كان عالما بنحو الكوفيين وعلم القرآن واللغة والشعر. ٧٩

٤- الطبقة الخامسة من الكوفيين:

نكتفى بذكر خاتمهم ثعلب.

ثعلب (ت ٢٩١ هـ) هو أحمد بن يحيى، إمام الكوفيين فى النحو واللغة وله ثمانى عشرة سنة أخذ عن الفراء، وصنف الكتب وله ثلاث وعشرون سنة. ٨٠ وكان ثعلب رأس نحاة الكوفة والمبرد الذى يعاصره رأس نحاة البصرة فوقعا فى الخلاف بين المذهبين باختلاف هذين الرأسين. ٨١ ومن مؤلفات ثعلب: المقصور فى النحو واختلاف النحويين ومعانى القرآن ومعانى الشعر والقراءات والتصغير وغريب القرآن. ٨٢

أجمع القدماء على أن نحو الكوفيين يشكل مذهبا مستقلا أو كما نقول بلغة العصر مدرسة مستقلة سواء منهم أصحاب كتب الطبقات والتراجم مثل ابن النديم فى كتابه *الفهرست* والزبيدى فى كتابه *طبقات النحويين واللغويين* وأصحاب كتب المباحث

النحوية إذ نراهم دائما يعرضون فى المسائل المختلفة وجهة النظر المتقابلتين فى المدرستين: الكوفة والبصرة. ٨٣

والكوفيون لو سمعوا بيتا واحدا فيه جواز شئ مخالف للأصل جعلوه أصلا وبوبوا عليه بخلاف البصريين بل كثيرا مازادوا القاعدة بدون رجوع على القاعدة نفسها, ولذلك كثرة الأقيسة والقواعد عند الكوفيين. واشتهر البصريون بأنهم أهل سماع, وأما الكوفيون فقد اشتهروا أنهم أهل قياس. ٨٤

يقول الكسائى رئيس مدرسة الكوفة:

إنما النحو قياس يتبع #

وبه فى كل أمر ينتفع ٨٥

وليس معنى هذا أن البصريين لم يلجئو إلى القياس وأن الكوفيين لم يلجئوا إلى السماع, ولكن لما تحفظ البصرى وتشدد فى أقسية تبعا للمسموع المعتمد عنده المقنن بضوابط وشروط سمى أهل سماع . ولما توسع الكوفى فى القياس والمقيس عليه سمى أهل قياس حيث فتح ذراعيه لكل مسموع, ولذا قل الشاذ عند الكوفيين وكثر عند البصريين.

والذى يعتبر المؤسس الحقيقى لمدرسة الكوفة بعد أن أخذت تلك المدرسة النحو من علماء البصرة كالخليل بن أحمد ويونس بن حبيب وغيرهما. ولعل أهم ما يميز المدرسة الكوفية من المدرسة البصرية اتساعها فى رواية الأشعار وعبارات عن جميع العرب بدويهم وحضريهم. ٨٦

وينبغى أن نعرف أن الكوفيين لم يقفوا بقياسهم عند ما سمعوه ممن فسدت سلائقهم من أعراب المدن أو ما شذ على ألسنة بعض أعراب البدو وقد استخدموا القياس أحيانا بدون إسناد إلى أى سماع, على سبيل المثال قياسهم العطف بلكن فى الإيجاب على العطف ببل فى مثل: قام زيد بل عمرو. فقد طبقوا ذلك على لكن وأجازوا قام زيد لكن عمرو بدون سماع عن العرب يجيز لها هذا القياس. ٨٧

وينبغى أن يستقر فى الأذهان أن المدرسة الكوفية لا تباين المدرسة البصرية من تلك الأركان التى ظلت إلى اليوم راسخة فى النحو العربى, غير أنها مع اعتمادها لتلك الأركان استطاعت أن تشق مذهبا جديدا له طوابعه ومبادؤه.

الخلاف بين البصريين والكوفيين فى النحو

١- اشترط البصريون لعمل الوصف الاعتماد على نفى أو استفهام لفظا أو تقديرا ولما جاء على خلاف هذا قول حاتم الطائى (ت ٤٦هـ).

خبير بنو لهب فلا تك ملغيا #

مقالة لهبى إذا الطير مرت

أولوه بأن خبير خبر مقدم, وهو وصف يستوى فيه الأفراد وعدمه وجعلوا بنو لهب مبتدأ مؤخرا, لا فاعلا. وأما الكوفيون فلم يشترطوا هذا , ولذا صح عندهم فاعلية بنو لهب بالوصف خبير مع كونه غير معتمد. ٨٨

٢- أوجب البصريون تذكير الفعل مع جمع المذكر السالم وتأنيثه مع جمع المؤنث السالم . وجوز الكوفيون التذكير والتأنيث: لما جاء قوله تعالى : آمنت به بنو إسرائيل (ويونس: ٩٠) , وكذا قول عبدة بن الطيب (ت ٢٥ هـ) :

فبكى بناتى شجوهن وزوجتى #

والظاعنون إلى ثم تصدعوا

لجأ البصريون إلى التأويل فقالوا: إن الجمعين لم يسلم فيهما بناء الواحد فأشبه جمع التكسير, ولما أجاز الكوفيون هذا لم يحتاجوا إلى التأويل. ٨٩

٣- الاسم مشتق من السمو عند البصريين, ومن الوسم عند الكوفيين. ٩٠

٤- الفعل مشتق من المصدر عند البصريين, والمصدر مشتق من الفعل عند الكوفيين. ٩١

٥- منع البصريون نيابة الظرف والجار والمجرور مع وجود الفعل ولما جاء فى القرآن الكريم : ليجزى قوما بما كانوا يكسبون (الجاشية: ١٤), إذ قال البصريون إن النائب فى الآية ضمير الجزاء , وأما الكوفيون فلم يؤولوا ذلك لقبوهم. ٩٢

٦- القول فى هلم جرا, كلام مستعمل فى العرف كثيرا, وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتابه *الزاهر* وبسط القول فيه, وقال: هلم جرا معناه: سيروا على هيئتكم أى تثبتوا سيركم ولا تجهدوا أنفسكم. وذكر الكوفيون أن جرا مصدر, و البصريون قالوا إنه حال. ٩٣

٧- اشترط البصريون فى التمييز وجوب التنكير , ولما جاء قول رشيد ابن شهاب: رأيتك لما أن عرفت وجوهنا

صددت وطبت النفس باقيس عن عمرو

قالوا: إنه ضرورة, أما الكوفيون فقد قبلوه لتجويزهم مجئ التمييز معرفة . ٩٤

٨- اشترط البصريون فى المؤكد أن يكون معرفة, ولما ورد التوكيد النكرة فى قول عبد الله بن مسلم بن جند الهذلى:

لكنه شاقة إن قيل ذا رجب #

يا ليت عدة حول كله رجب

انكروا هذه الرواية وقالوا إن الرواية الصحيحة : حولى, وعلى فرض صحة هذه الرواية فالبيت ضرورة . ٩٥ وأما الكوفيون فقد قبلوه لأنهم جوزوا تأكيد النكرة إذا كانت محددا كما هى هنا. ٩٦

٩- منع البصريون إضهار (أن) بعد (كى) ولما اعترض بقول الشاعر:

أردت لكيما أن تطير بقربتى #

فتتركها شنا ببيداء بلقع

قالوا إن قائله غير معروف أو ضروة, أما الكوفيون فقد قبلوه. ٩٧

١٠- قال البصريون لا يجوز الفصل بين المتضايفين, ولما جاء على خلاف ما قالوا قوله تعالى : فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله (الأنعام: ١٣٧) فى قراءة نصب (وعده) وجر (رسله) لإضافة

(مخلف) إليها, أما الكوفيون فقد أجازوا هذا, لأن القراءة بها وردت . ٩٨

١١- أجاز الكوفيون إضافة كذا إلى مفرد أو جمع قياسا على العدد الصريح ولم يجز البصريون هذا لعدم السماع, في سياق منع البصريون هذا : خلافا للكوفيين أجازوا في غير تكرار ولا عطف أن يقال: كذا ثوب وكذا أثواب قياسا على العدد الصريح. ٩٩

١٢- والاسم الذى فيه التاء كطلحة لا يجمع جمع مذكر سالما عند البصريين وقد أجاز الكوفيون جمعه. ١٠٠

١٣- جوز الكوفيون تثنية أجمع وجماء وتوابعهما قياسا على جمعهما وتبعهم في هذا الأخفش (ولم يجز معظم البصريين ذلك لفقدان السماع), ويقول الرضا: وقد أجاز الكوفيون والأخفش لمثنى المذكر أجمعان , أكتعان, أبصعان, أبتعان. ولمثنى المؤنث جمعاوان, كتعاوان, بصعاوان, بتعاوان, وهو غير مسموع. ١٠١

١٤- أمامك زيد وفى الدار عمر: فاحتج الكوفيون بأن قالوا إن الأصل في قولك أمامك زيد وفى الدار عمر, حل أمامك زيد وحل في الدار عمر فحذف الفعل واكتفى بالظرف منه. وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا إنما قلنا إن الاسم بعده يرتفع بالابتداء لأنه قد يعرى من العوامل اللفظية. ١٠٢

الخلاصة:

١- إن اختلاط العرب بغيرهم من أهل البلاد المفتوحة هو السبب الرئيسى فى وقوع اللحن فى اللغة العربية, كما أن العرب اتخذوا العبيد والموالى والجوارى لإدارة المنازل فى العصر الإسلامى المبكر. وقد روى أن رجلا لحن أمام الرسول صلى الله عليه وسلم : أنه قال لأصحابه ارشدوا أخاكم فإنه قد ضل.

٢- إن أبا الأسود الدؤلى قد لعب دورا كبيرا فى وضع علم النحو, سواء من أمر نفسه أو من أمر على بن أبى طالب كرم الله وجهه أو من أمر عمر بن الخطاب أو من أمر زياد وهم كانوا على علم بمعرفة أبى الأسود الدؤلى على اللغة العربية.

٣- اتفق العلماء على أن العراق كانت مهدا لنشأة النحو العربى ومدينة البصرة هى مقر نشأته الأول قبل الكوفة بقرن من الزمان.

٤- تبدأ الطبقة الأولى من البصريين من عهد نصر بن عاصم (ت ٨٩ هـ) وتبدأ الطبقة الأولى عند الكوفين فى عهد أبى جعفر الرؤاسى (ت ١٧٥ هـ).

٥- إن المبرد وثعلب هما يمثلان مدرستى البصرة والكوفة فى آخر القرن الثالث الهجرى, وقد جرى بينهما مناظرات علمية ولكل منهما شيعته وحزبه.

الـهـــوامـــــــش :

١- القرآن: سورة قريش

٢- محمد الشاطر أحمد محمد. *الموجز فى نشأة النحو*. القاهرة: مكتبة كليات الأزهر. ١٩٨٣م. ص ٥

٣- الدكتور يوسف أحمد المطوع. *الموسوعة النحوية الصرفية*. القاهرة: دت. ص ١

٤- *نفس المرجع*

٥- الدكتور أحمد مكى الأنصارى. *الدراسات اللغوية النحوية*. القاهرة: دن. ١٩٧٧ م. ص ١٤

٦- الدكتور محمد على السمان. *اليسير*. مكتبة جامعة الأزهر. القاهرة: ١٩٧٧ م. ص ٧

٧- الدكتور عبد العزيز مطر. *لحن العامة*. القاهرة: جامعة عين الشمس. ١٩٦٦. ص ١٩

٨- *نفس المرجع*

٩- *نفس المرجع*

١٠- *نفس المرجع*

١١- *نفس المرجع*. ص ٢٥

١٢- *نفس المرجع*

١٣- *نفس المرجع*. ص ٢٧

١٤- الشيخ أحمد الإسكندرى ومصطفى عنانى. *الوسيط*. القاهرة: دار المعارف. دت. الطبعة الثامنة عشرة. ص ٥

١٥- محمد الشاطر أحمد محمد. *المرجع السابق*. ص ٦

١٦- *لحن العامة*. ص ٣٠

١٧- *نفس المرجع*

١٨- القرآن. سورة براءة. آية ٣

١٩- محمد الشاطرى أحمد محمد، المرجع السابق، ص ٩

٢٠- نفس المرجع، ص ٨

٢١- نفس المرجع، ص ١٥

٢٢- نفس المرجع، ص ١٦

٢٣- نفس المرجع

٢٤- نفس المرجع، ص ١٨

٢٥- الدكتور محمد على السمان، المرجع السابق، ص ٩

٢٦- محمد الشاطر أحمد محمد، المرجع السابق، ص ٢٢

٢٧- نفس المرجع

٢٨- نفس المرجع

٢٩- نفس المرجع، ص ٢٤

٣٠- شوقى ضيف، المدارس النحوية، القاهرة: ن ث، ص ٢٠

٣١- نفس المرجع

٣٢- نفس المرجع

٣٣- محمد الشاطر أحمد محمد، نفس المكان

٣٤- شوقى ضيف، المرجع السابق، ص ٣٧

٣٥- نفس المرجع

٣٦- الدكتور محمد على السمان، المرجع السابق، ص ١٠

٣٧- محمد الشاطر أحمد محمد، المرجع السابق، ص ٤١

٣٨- نفس المرجع

٣٩- نفس المرجع

٤٠- نفس المرجع

٤١- نفس المرجع

٤٢- نفس المرجع

٤٣- نفس المرجع، ص ٤٨

٤٤- نفس المرجع

٤٥- نفس المرجع

٤٦- نفس المرجع

٤٧- نفس المرجع

٤٨- نفس المرجع

٤٩- نفس المرجع

٥٠- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٤، الطبعة الثالثة، الجزء الثاني، ص ١٥١

٥١- بولس براورز، المنجد في الأعلام، بيروت: دار المشرق، ١٩٧٣، الطبعة السابعة، ص ٣٥٠

٥٢- محمد الشاطر أحمد محمد، المرجع السابق، ص ٥١

٥٣- كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ١٣٤-١٣٥

٥٤- نفس المرجع، ص ١٦٨

٥٥- نفس المرجع، ص ١٤٥

٥٦- نفس المرجع، ص ١٤٧

٥٧- محمد الشاطر أحمد محمد، المرجع السابق، ص ٦٣

٥٨- كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ١٣٩

٥٩- نفس المرجع

٦٠- محمد الشاطر أحمد محمد، المرجع السابق، ص ٦٥

٦١- نفس المرجع، ص ٧١-٧٢

٦٢- بولس براورز، المرجع السابق، ص ٣٥١

٦٣- نفس المرجع، ص ٣١٥

٦٤- محمد الشاطر أحمد محمد، المرجع السابق، ص ٧٥

٦٥- نفس المرجع، ص ٧٦

٦٦- نفس المرجع، ص ٨٠

٦٧- نفس المرجع، ص ٥٢-٥٣

٦٨- كارل بركلمان، المرجع السابق، ص ١٩٧

٦٩- محمد الشاطر أحمد محمد، المرجع السابق، ص ٥٣

٧٠- نفس المرجع، ص ٦٠

٧١- الشيخ أحمد الإسكندري والشيخ مصطفى عناني، المرجع السابق، ص ٢٣٢

٧٢- نفس المرجع

٧٣- محمد الشاطر أحمد محمد، المرجع السابق، ص ٦٥

٧٤- نفس المرجع، ص ٦٦

٧٥- كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ١٩٩

٧٦- نفس المرجع

٧٧- محمد الشاطر أحمد محمد، المرجع السابق، ص ٦٨

٧٨- نفس المرجع

٧٩- نفس المرجع، ص ٧٧

٨٠- نفس المرجع

٨١- نفس المرجع، ص ٧٨

٨٢- نفس المرجع، ص ٨٢

٨٣- كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ٢١٠

٨٤- محمد الشاطر أحمد محمد، المرجع السابق، ص ٨٣

٨٥- شوقي ضيف، المرجع السابق، ص ١٥٥

٨٦- محمد الشاطر أحمد محمد، المرجع السابق، ص ٢٨

٨٧- نفس المرجع

٨٨- شوقي ضيف، المرجع السابق، ص ١٥٩

٨٩- نفس المرجع، ص ١٦٤

٩٠- محمد الشاطر أحمد محمد، المرجع السابق، ص ٣٠

٩١- نفس المرجع، ص ٣١

٩٢- نفس المرجع، ص ٣٥

٩٣- نفس المرجع

٩٤- نفس المرجع، ص ٣١

٩٥- ابن هشام الأنصاري، *المسائل السفرية*، بيروت: مكتبة مؤسس الرسالة، ١٩٨٣، الطبعة الأولى، ص ٣٦

٩٦- محمد الشاطر أحمد محمد، *المرجع السابق*، ص ٣١

٩٧- *نفس المرجع*، ص ٣٢

٩٨- *نفس المرجع*

٩٩- *نفس المرجع*

١٠٠- *نفس المرجع*، ص ٣٣

١٠١- *نفس المرجع*، ٣٤

١٠٢- *نفس المرجع*، ص ٣٥

١٠٣- *نفس المرجع*، ص ٣٤

١٠٤- كمال الدين أبي البركات عبد الرحمن الأنصاري، *في مسائل الخلاف*، القاهرة: دت، دن، ص ٢٩

H. Ahmad Bachmid, dilahirkan di Manado, 5 Oktober 1948. Menyelesaikan SD 6 tahun di Manado (1960), PGA 6 tahun di Palu (1966), Sarjana Muda di IAIN Alauddin Makasar (1970), Sarjana S1 di Al-Azhar Cairo (1974), Sarjana Lengkap di IAIN Alauddin Makassar (1981) dan meraih gelar Doktor di IAIN Syarif Hidayatullah Jakarta (1999). Sekarang beliau bertugas sebagai Dosen Fakultas Adab IAIN Jakarta dengan jabatan Pudek III Fakultas Adab IAIN Syarif Hidayatullah Jakarta. Di samping itu, beliau juga bekerja sebagai Dosen luar biasa di STAI Al-Hamidiyah (1994 s.d sekarang) dan Dosen luar biasa di Institut Al-Ayyubi, Bekasi (1987 hingga sekarang).